شهيد التصوف الإسلامي
الحلاج

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

٧

الحلاج والتصوف

كانت حياة الحلاج وما انبثق منها من إشعاعات وإشراقات ، وما ابتدعت من مناهج فى التفكير والتأمل والروحانيات ، كانت كما يقول — نيكلسون — : لحظة جوهرية فى تاريخ التصوف الإسلامى :

كانت حياته من نقاط التحول والتطور فى الأفق الصوفى ، ومن مطالع النماء والخصوبة فى التفكير الروحى ، وإلى الحلاج ترجع الأصول الكبرى لذلك التراث الإسلامى العالمى ، الذى شكل فى محيط الفكر الصوفى أعظم القوى الروحية الإيمانية التى عرفها تاريخ الإنسان .

والتصوف عند الحلاج ، هو انتساب الإنسان إلى الله سبحانه ، لا إلى هذا العالم المادى الحيوانى ، بل هو ارتفاع الإنسان إلى الله فى سفر طويل هائل ، لا تقدر عليه إلا عزمات الرجال الكبار ، المصطفين الأخيار .

سفر تفنى فيه الصفات البشرية ، فى الصفات الإلهية ، فناء طاعة وعبودية ، وحب ووجد ، وذوق وشوق .

ويقسم الحلاج هذا السفر الطويل إلى أربع رحلات ، تبتدئ أولاها بالمعرفة وتنتهى بالفناء ، والثانية تبدأ أنوارها والهاماتها حينما يعقب الفناء البقاء ، وفى الثالثة يوجه الإنسان الكامل اهتمامه لمخلوقات الله مرشدا وهاديا .

والرابعة وما أدراك ما الرابعة !! قمة سامقة مشرقة ، يحلق الإنسان فى آفاقها وقد غمرته الصفات الربانية ، والأنوار الإلهية ، فيصبح مرآة تتجلى فيها حقائق الكون وأسراره ، وهو موقف لا مجال للحديث عنه ، وحسبنا أن نومئ هنا

إلى كلمة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي : « ليس فى مستطاع أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم ، وغاية ما فى هذا المستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر لأولئك الذين أخذوا فى ممارستها » .

ومن أراد فقها أكبر ، فليتأمل قول سيد المرسلين فى حديث الإسراء : « انعكس بصرى فى بصيرتى ، فرأيت من ليس كمثله شيء » أى رآه بالحاسة القلبية الروحية .

يقول الحلاج : « أسماء الله التسعة والتسعون تصير أوصافا للعبد السالك ، وهو يعد فى السلوك غير واصل » (١) .

ويقول : « من صدق مع الله فى أحواله فهم عنه كل شى ، وفهم عن كل شيء » (٢) .

ومن هذا الأفق قول الشبلى للجنيد ، : « ما رأيك فيمن الحق نعته حالا ومقاما ؟ فقال : هيهات ياأبا بكر ، بينك وبين أكابر الطبقة ألف طبقة ، فى أولها ذهب الاسم » — أى لا يوجد أنا أبدا — .

ولقد حمل الحلاج أمانة المعرفة الصوفية العليا وعاشها بروحه وقلبه وحسه ، وقدم دمه فـــداء لها فى بطولة أسطورية لا يزال شعاعها وإلهامها يومض عبر التاريخ .

كانت تجربة الحلاج الصوفية من أصدق وأخلص ما عرف تاريخ التصوف ، وهذا سر ما فيها من عمق ، ومن حرارة ، ومن إلهام .

لقد صعد فى معارجها بجناح جبار من أجنحة الحب والوجد ، ووهبها كل ذرات روحه وهتافات قلبه ، وأمانى حسه ، وحمل قيثارته ليهب للخلود ، إلهامات حبه ومعرفته وتجربته .

يقول الحلاج مصورا لحبه ووجده :

الله يعلم ما فى النفس جارحة إلا وذكرك فيها نيلُ ما فيها

---

(١) الطواسين طبع ماسنيون صفحة ٩٢

(٢) الطواسين طبع ماسنيون صفحة ٩٣

ولا تنفستُ إلا كنت فى نفسى ... تجرى بك الروح منى فى مجاريها
إذ كانت العين مذ فارقتها نظرت ... إلى سواك فخانتها مآقيها
أو كانت النفس بعد البعد آلفة ... خلفا عداك فلا نالت أمانيها

ثم يهتف ، وقد برح به الهوى ، واشتعل قلبه بالوجد ، وهامت روحه بأنوار القرب ، و سكرت أحاسيسه بإشراقات الأنس ، حتى تفجرت ألحانا وأنغاما بحبه العلوى المقدس (١)

أباحت دمى إذ باح قلبى بحبها ... وحل لها فى حكمها ما استحلت
وما كنت ممن يظهر السر إنما ... عروسُ هواها فى ضميرى تجلت
فألقت على سرى أشعة نورها ... فلاحت لجلاسى خفايا طويتى
فإن كنت فى سكرى شطحت فإننى ... حكمت بتمزيق الفؤاد المفتت
ومن عجب أن الذين أحبهم ... «وقد أعلقوا أيدى الهوى بأعنة»
سقونى وقالوا لا تفنى ولو سقوا ... جبال حنين ما سقونى لفتت

لقد توغل فى معراج السلوك ففنى عن كل ما سوى الله سبحانه ، وتطهرت روحه وبرئت من كل مالا ينتسب إليه جل جلاله ، فصار فى حال فناء كامل عن وجود السوى ، وشهود السوى ، وعبادة السوى ، فلم يصبر على ما شاهد من جمال وجلال فهتف : (٢)

والله ما طلعت شمس ولا غربت ... إلا وحبك مقرون بأنفاسى
ولا خلوت إلى قوم أحدثهم ... إلا وأنت حديثى بين جلاسى
ولا ذكرتك محزونا ولا فرحا ... إلا وأنت بقلبى بين وسواسى
ولا هممت بشرب الماء من عطش ... إلا رأيت خيالا منك فى الكاس
ولو قدرت على الاتيان جئتكم ... سعيا على الوجه أو مشيا على الراس
مالى وللناس كم يلحونى سفها ... دينى لنفسى ودين الناس للناس

ما للحلاج والناس ، لقد سما فوق التراب والطين ، وتطلع إلى مشارق الروح ورب الرب .

ولنستمع إليه فى تلك الضراعة المؤمنة المحبة الملهمة وهو يناجى حبيبه الأكبر وموجوده الأعظم :

---

(١) ديوان الحلاج . نشر ماسنيون
(٢) ديوان الحلاج . نشر ماسنيون

« .. عن ابن الحداد المصرى قال :[1] خرجت فى ليلة مقمرة إلى قبر أحمد ابن حنبل رحمه الله ، فرأيت هناك من بعيد رجلا قائما مستقبلا القبلة فدنوت منه من غير أن يعلم ، فإذا هو الحسين بن منصور وهو يبكى ويقول :

يامن أسكرنى بحبه ، وحيرنى فى ميادين قربه ، أنت المنفرد بالقدم ، والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق ، قيامك بالعدل لا بالاعتدال ، وبعدك بالعزل لا بالاعتزال ، وحضورك بالعلم لا بالانتقال وغيبتك بالاحتجاب لا بالارتحال ، فلا شىء فوقك فيظلك ، ولا شىء تحتك فيقلك ، ولا أمامك شىء فيحدك ، ولا وراءك شىء فيدركك .. اسألك بحرمة هذه الترب المقبولة ، والمراتب المسئولة ، ألا تردنى إليّ بعد ما اختطفتنى منى ، ولا ترينى نفسى بعد ماحجبتها عنى ، وأكثر أعدائى فى بلادك ، والقائمين لقتلى من عبادك .

فلما أحس بى التفت وضحك فى وجهى ورجع وقال لى : يا أبا الحسن !! هذا الذى أنا فيه أول مقام المريدين ، ثم زعق ثلاث زعقات وسقط وسال الدم من حلقه ، وأشار إلى بكفه أن اذهب فذهبت وتركته ، فلما أصبحت رأيته فى جامع المنصور فأخذ بيـــدى ومال بى إلى زاوية وقال : بالله عليك لاتعلم أحدا بمارأيت البارحة » .

صلة الحلاج بالله :

هذا الحلاج المحب الفانى ، العابد المثالى ، السابح فى وجده ، المحترق فى تجربته ، المشوق فى قربه ، الذى ملأ الدنيا بضجيج ضراعاته ومواجيده ، قد امتلأت صحف التاريخ بالتهاويل والأباطيل حول حبه وعقيدته ، وحول إيمانه وصلته بربه !؟

وصفوه بأنه حلولى ينادى بالحلول ، ويتخذ الحب والفناء معراجا لغايته ، وتنادوا بأنه اتحادى ، يحاول برياضاته ومجاهداته وشطحاته أن يتحد بموجده فى تجربة مبهمة غامضة !!؟ وأنه اتخذ من الوجد والنشوة عند السماع والاستغراق سبيلا إلى هدفه ، حتى أصبح فى سكره وسبحاته يقول فى دعاوى عريضة : أناعوضا عن هو !!؟ تأليها لنفسه وللإنسان المجتبى المختار الكامل ، الذى يجد فى ذاته حقيقة .. صورة الله !!؟

---

(١) أخبار الحلاج ص ١٤ ، ١٥

فهل كان الحلاج كما قالوا ؟ وهل كان الحلاج كما وصفوا ؟ لنمش معه خطوات فى مناجاته لربه ، وخطوات فى حديثه عن صلة الإنسان بخالقه .

قال أحمد بن فاتك : قال الحلاج :(١) من ظن أن الألوهية تمتزج بالبشرية ، أو البشرية تمتزج بالإلهية فقد كفر ، فإن الله تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه بشىء من الأشياء ، وكيف يتصور الشبه بين القديم والمحدث !! ومن زعم أن البارى فى مكان ، أو على مكان ، أو متصل بمكان ، أو يتصور على الضمير ، أو يتخايل فى الأوهام ، أو يدخل تحت الصفة والنعت فقد أشرك .

وعن الحسين بن حمدان قال : « (٢) دخلت على الحلاج يوما فقلت له : أريد أن أطلب الله فأين أطلبه ؟ فاحمرت وجنتاه وقال :

الحق تعالى عن الأين والمكان ، وتفرد عن الوقت والزمان ، وتنزه عن القلب والجنان ، واحتجب عن الكشف والبيان ، وتقدس عن إدراك العيون ، وعما تحيط به أوهام الظنون ، تفرد عن الخلق بالقدم ، كما تفردوا عنه بالحدوث ، فمن كانت هذه صفته كيف تطلب السبيل إليه !! ثم بكى وقال :

فقلت أخلائى هى الشمس ضوؤها قريب ولكن فى تناولها بعد

قال ابن فاتك (٣) : « قصدت الحلاج ليلة فرأيته يصلى فقمت خلفه ، فلما سلم قال : اللهم أنت المأمول بكل خير ، والمسئول عن كل مهم ، والمرجو منك قضاء كل حاجة ، والمطلوب من فضلك الواسع كل عفو ورحمة .

وأنت تعلم ولا تُعلم وترى ولا ترى ، وتخبر عن كوامن أسرار ضمائر خلقك ، وأنت على كل شىء قدير . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك ، وعواطر قربك ، أستحقر الراسيات وأستخف الأرضين والسموات ، وبحقك لو بعت منى الجنة بلمحة من وقتى ، أو بطرفة من أحر أنفاسى لما اشتريتها ، ولو عرضت على النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتها فى مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك منى ، فاعف عن الخلق ، ولا تعف عنى ، وارحمهم ولا ترحمنى ،

---

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ٢٨ ، ٢٩

(٢) « « « « ٤٣

(٣) « « « « ٤٤

فلا أخاصمك لنفسى ، ولا أسألك بحقى ، فافعل بى ما تريد . فلما فرغ قام إلى صلاة أخرى وقرأ الفاتحة ، وافتتح بسورة النور ، وبلغ إلى سورة النمل ، فلما بلغ إلى قوله تعالى : « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض » صاح صيحة عظيمة وقال : هذه صيحة الجاهل به » .

ومن الكلم الذى تخفق له القلوب ، ويشع منه النور ، تلك المناجاة الحلاجية :

« . . . إلهى وإله الموجودات والمعقولات والمحسوسات ، يا واهب العقول والنفوس ، ومخترع ماهيات الأركان والأصول ، يا واجب الوجود ، ومفيض الجود ، يا جاعل القلوب والأرواح ، يا فاعل الصور والأشباح ، يانور الأنوار ومدبر كل الدوار ، أنت الأول الذى لا أول قبلك ، وأنت الآخر الذى لا آخر بعدك ، الملائكة عاجزون عن إدراك جلالك ، والناس قاصرون عن معرفة كمال ذاتك . اللهم خلصنا من العوائق الدنية الجسمانية ، ونجنا من العوائق الردية الظلمانية ، وأرسل على أرواحنا شوارف آثارك . وأفض على نفوسنا بوارق أنوارك .

العقل قطرة من قطرات ملكوتك ، والنفس شعلة من شعلات جبروتك ، ذاتك ذات فياضة ، تفيض منها جواهر روحانية ، لا متمكنة ولا متحيزة ، ولا متصلة ولا منفصلة ، مبرأة عن الأحياز والأين ، معراة عن الوصل والبين ، فسبحان الذى لا تدركه الأبصار ، ولا تمثله الأفكار ، لك الحمد والثناء ، ومنك المنع والعطاء ولك الجود والبقاء ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

قال ابن سودكين راوياً عن شيخه : « رأيت الحلاج فى هذا التجلى فقلت له يا حلاج : هل تصح عندك علية له ؟ وأشرت !! فتبسم وقال : أتريد قول القائل : يا علة العلل ، ويا قديم لم يزل ، قلت له : نعم ، قال : هذه قولة جاهل ، اعلم أن الله تعالى يخلق العلل وليس بعلة . كيف يقبل العلية من كان ولا شىء معه ، وأوجد من لاشىء ، وهو الآن كما كان ، ولا شىء ، جل وتعالى !! لو كان علة لا ارتبط ، ولو ارتبط لم يصح له الكمال تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً !! قلت له : هكذا أعرفه ، قال : هكذا ينبغى أن يعرف فاثبت :

قال ابن سودكين : سمعت شيخى يقول ـ فى أثناء شرحه لهذا التجلى ـ لما

اجتمعت بالحلاج رحمه الله فى هذا التجلى وسألته عن العلية ، هل تصح له أم لا ؟ فقال : هى قولة جاهل — يعنى أرسطو [1] » .

ويقول الحلاج — واصفاً للمتحققين بالله فى وجدهم — : « إن لله عباداً اختارهم من خلقه ، واصطفاهم لنفسه ، وانتخبهم لسره ، وأطلعهم على لطيف حكمته ، ومخزون علمه ، أفناهم عن أوصافهم الناشئة عن طبائعهم ، ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم ، ولم يحوجهم إلى المرسوم من حكمة الحكماء ، بل كان هو لسانهم الذى به ينطقون ، وبصرهم الذى به يبصرون ، وأسماعهم التى بها يسمعون ، وأيديهم التى بها يبطشون ، وقلوبهم التى بها يتفكرون . بان عن حلول فى ذواتهم ، فأبدى الأشياء فيما بينه وبينهم ، قهر كل موجود ، وغمر كل محدود ، وأفنى كل معهود ، ظهر لأهل صفوته ، ولم يجعل للعلم إلى كيفية ذلك سبيلا ، ولا إلى بحث ذلك تمثيلا » .

ومن الكلم الطيب الذى يصعد فى معارج النور إلى مقام الإلهام قول الحلاج :

« من عرفه ما وصفه ، ومن وصفه ما عرفه ، عنت الوجوه لعظمة كبريائه فى أرضه وسمائه ، وأنست قلوب أوليائه بشهود جلاله وجماله وبهائه ، وكلت المقاول عن شكر آلائه وأفضاله ونعمائه ، وقصرت المعارف عن ذاته وصفاته وأسمائه ، وحارت العقول فى نزوله وارتفاعه واستوائه !! فقوم جحدوا وألحدوا ، وقوم أشركوا وعددوا ، وقوم أنكروا الصفات فعطلوا وبطلوا ، وقوم أثبتوها ولكن شبهوا وشكوا . ولم يصب شاكلة الحق إلا من آمن بالذات والصفات ، وكفر باللات والآلات ، ولازم التوحيد والتنزيه ، وأثبت الصفة ، ونفى التعطيل والتشبيه .

البحث مستمر

---

(١) أخبار الحلاج طبع باريس